

متى، كيف، وأين تصوّف ابن خميس التلمساني؟

أ. بعلي زوبير

zoubirhistory@gmail.com

جامعة باتنة 1

الملخص:

عُرف ابن خميس أكثر ما عُرف بالشعر والبلاغة وتولي الكتابة في دواوين الدولة الزيانية، كما عرف بأنه مثل الدم يتحرك كل ربيع فلا يكاد يستقر في بلد إلا ويغادرها إلى غيرها فمن تلمسان إلى فاس إلى سبتة إلى المرية إلى غرناطة، هذا الترحال الذي كان سببه إما سياسيا أو رفض البعض لتوجهه الفكري إما حسدا وإما جهلا حسب قوله، هذا ورغم أنّ المدح والحنين قد أخذ حيزا كبيرا من شعره إلا أنّ المنحى الصوفي يظهر في حياة ابن خميس واضحا في ألفاظه وعباراته رغم أنّ المصادر لا تكاد تذكر شيئا عن شيوخه ومن أخذ عنهم.

الكلمات المفتاحية:

التصوف-ابن خميس-الدولة الزيانية-تلمسان-فاس-سبتة-غرناطة- الطريقة الشاذلية- الغزالي.

SUMMARY :

Ibn Khamis was mostly known for his rhetoric and poetry, as well as his secretarial services at the Zianid state courts. He was also known for his unstability- moving constantly from one country to another ; from Tlemcen to Fes, Ceuta, Almeria, then to Granada. His constant moving was due to either political reasons or the opposition of some of his counterparts against his intellectual orientation owing to their envy or their ignorance as he himself put it.

Though eulogy and yearning were the main subjects of Ibn Khamis's poetry, his sufi orientation is quite clear through his expressions. That is despite the fact that the sources never mention his sufi mentors and masters !

Key words :

Sufism – Ibn Khamis –The Zianid state –Tlemcen – Fes – Ceuta –Granada –The Chaudhi approach –El Ghazali.

مقدمة:

يعتبر الأدب الصوفي من الأدبيات التي تزخر بها خزائن التراث في الفترة الوسيطية كما تعتبر هذه الأشكال من الكتابة مصدرا هاما من المصادر الدفينة التي يستعين بها الباحث كبديل في كتابة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي لحاضر العالم الإسلامي وذلك لأنّ المصادر التاريخية الأخرى كانت تهتم بالأساس بالحدث العسكري وتترجم للنابحين من السلاطين والعائلات المالكة وتكاد تحمل بقية الفئات الاجتماعية الأخرى التي كانت قوام الفعل التاريخي.

وإذا كانت أسباب الرحلة متعدّدة ومتنوعة فمنها ما كان لأسباب سياسية ومنها ما كان لأسباب اقتصادية، ومنها ما كان لأسباب دينية كرحلة الحج ومنها ما كان بسبب الطلب والعلم ولقاء المشايخ إذ كان ابن خلدون يرى بأنّ الرحلة مزيد كمال في العلم. يقول: "فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال".¹ فقد كان المتصوفة أكثر الناس ميلا إلى العزلة والسياسة فكانوا يُعملون الرحلة والسفر حتى سُموا بالسفارة.

هذا وقد كان لصوفية حاضرة تلمسان الصيت الذائع والدور البالغ في الحياة العلمية والحضارية في شتى حواضر العالم الإسلامي التي رحلوا إليها كفاس وغرناطة حيث ساهموا في بعث الحركة العلمية بها في شتى مجالات المعرفة كما كان لهم دورهم الحضاري (السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري) حيث كانوا فاعلين في مؤسسات الدولة كالقضاء والجيش والوزارة.

ومن بين علماء تلمسان الذين لم يعرفوا الاستقرار في وطن إلا وأرغمتهم الظروف على شدّ عصا الترحال الأديب الصوفي محمد بن عمر بن محمد الحنجري الرُعيني أبو عبد الله المعروف بابن خميس (ت708هـ) الذي تنقل بين حواضر الغرب الإسلامي من تلمسان إلى فاس إلى سبتة إلى المرية ليلقي عصا التسيار بعاصمة النصريين غرناطة أين قضى مع وزيره ابن الحكيم.

وإذا كان الحنين إلى تلمسان قد أخذ النصيب الأوفر من شعر ابن خميس، إلا أنّ أشعاره لم تكن لتخلو أبداً من مسحة صوفية تدل على تصوفه وإحاطته بطريق الصوفية ومذاهبهم في زمانه، وإذا كان القرن السابع هو عصر ازدهار التصوف والمذاهب الصوفية خاصة في تلمسان وفاس وسبتة وغرناطة فإنّ المصادر لا تذكر شيئاً عن تصوّف ابن خميس وهي إشكالية نحاول جاهدين البحث عن إجابة لها من خلال مقارنة نصوصه الشعرية مع الأحداث التاريخية والواقع الاجتماعي والثقافي الذي كان سائداً في الفترة موضوع الدراسة.

في تلمسان:

ولد ابن خميس في تلمسان، ويذكر العبدري أنّه ولد سنة 650هـ²، وهو ما ذكره أيضاً صاحب درة الحجال.³ وذكر صاحب أزهار الرياض ناقلاً قول ابن خاتمة أنّ ابن خميس توفي في شوال من سنة 708هـ عن عمر ينيف عن الستين سنة⁴ -أي وزيادة-⁵، وهو ما يُستشف منه أنّ ابن خميس يكون قد ولد حسب هذا القول قبل سنة 648هـ. وبناءاً على ذلك يكون ابن خميس قد عاش في عهد السلطان يغمراسن بن زيان (633هـ- 681هـ) إلى غاية عهد أبي سعيد عثمان (703هـ- 707هـ)، ورغم أنّه لم يقض كل هذه الفترة في تلمسان إلا أنّ الحنين ظل يعاوده فكان يتابع أحوالها وأحداثها مخلّداً ذلك في شعره الذي اتّسم بالحنين.

ولا تكاد تذكر المصادر شيوخ ابن خميس ولا من أخذ عنهم إلا قول ابن الخطيب من أنّه كان محمد بن خميس التلمساني من كبار علماء تلمسان فقد كان عالماً بالعربية والأصليين ومن كبار علماء الطريقة في السلوك والتصوّف.⁶

ويبدو أنّ ابن خميس قد سلك طريق العزلة والتصوّف شاباً فالعبدري يذكر عند مروره بتلمسان أنّه لم يجد من ينتمي إلى العلم ولا من يتعلق به رغم قلّة المعين عليه والراغب فيه إلا ابن خميس وقد وصفه بأنّه كان على تقلّل من الدنيا وزهد فيها.⁷

وبالرغم من أنّ المصادر لا تذكر الشيء الكثير عن نشأة ابن خميس العلمية إلا أنّها تذكر أنّ الجوّ العام في تلك الفترة كان جوّاً علمياً مفعماً بالتصوّف والصوفيّة، فالسلطان الزياني يغمراسن بن زيان (633هـ-681هـ) كان ممّن يقرب العلماء، ومن بين الفقهاء والصلحاء المتصوّفة الذين استقدمهم السلطان الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي (ت 680هـ) صاحب الكرامات دفين العباد، والذي كان قبره مزاراً يتبرك به.⁸ كما أنّ تلميذه أحد كبار المتصوّفة في ذلك العصر وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق والذي كان السلطان أبي يحيى يغمراسن بن زيان يتقرب إليه ويسترضيه.⁹

ولا تذكر المصادر لقاء ابن خميس بابن مرزوق ولا تلقّيه عن التنسي الذي تصفه المصادر بأنّه من المتصوّفة الفقهاء ومن أولياء الله أوتي علم الظاهر والباطن¹⁰، بل إنّ الآبلي يذكر أنّ التنسي لما قصد بلاد المشرق التقى بابن دقيق العيد فسأله عن ابن خميس وجعل يحلّيه، فتعجب التنسي لذلك وذكر بأنّه لا يعرف ابن خميس بهذه الأوصاف وأنّه مجرد شاعر ودون المرتبة التي ذكرها ابن دقيق، لكنّ ابن دقيق ذكر بأنّ أهل تلمسان لم ينصفوا هذا الرجل صاحب قصيدة "عجبا لها أيدوق طعم وصالها" والتي يذكر أنّ ابن دقيق العيد لم يقرأها حتى قام إجلالاً لها.¹¹

لكنّ السؤال الذي يطرح نفسه علينا بالحاح هو: لماذا لم يلق ابن خميس — حسب الرواية — في تلمسان تلك المكانة العلمية التي حلّاه بها علماء المشرق؟ من وراء عدم معرفة التنسي ابن خميس بغير الأدب والشعر دون التصوّف؟ هل كان للسياسة دورها؟ أم أنّ منحى ابن خميس وطريقته في تصوّف لم تكن لتلقى قبولا لدى متصوّفة وفقهاء عصره بتلمسان؟

لا يمكن لأحد أن يجازف بالحكم خاصة إذا علمنا أنّ هناك من علماء تلمسان والمغرب الأوسط من حلّاه كالأبلي وابن خلدون مؤرخ الدولة الزيانية صاحب البغية ذكر ابن خميس ووصفه بالفقيه العارف شاعر المئة السابعة.¹²

ولعلّ أهم من تأثر بهم ابن خميس الكاتب محمد بن عبد الله بن داوود بن خطاب الغافقي المرسى (ت686هـ) وهو من سبقه في الكتابة للسلطان أبي يحيى يعمراسن بن زيان.¹³ وقد ذكر الإمام العبدري عند مروره بتلمسان لقاءه بابن خميس وأنه أنشده من شعر بن الخطاب المرسى وتأثره به، وهي أبيات لا تكاد تخل من نزعة صوفية واضحة:

أبصرت أبواب الملوك تغص بـ الراجلين إدراك الغنا والجاه

متزقين لها فمهما فتحت خروا لأذقان لهم وجباه

فأنفت من ذاك الزحام وأشفقت نفسي على إنضاء جسمي الواء

ورأيت باب الله ليس عليه من متراحم فقصدت باب الله

وتخذته من دونهم لي غداة وأفقت من غيبي وطول سفاة.¹⁴

وقد تبادل ابن خميس مع ابن الخطاب المرسى القريض.¹⁵ وابن الخطاب تأثر في نشأته ومشيخته بكبار صوفية مرسية وزهادهم، من بينهم: أبو العباس الطرسوني الزاهد العابد، والزاهد أبو عبد الله السمّار، والورع أبو عبد الله النجار الذي كان شديد الانقباض عن عشرة الناس.¹⁶ وقد ظهر ذلك في شعره:

اقنع بما أوتيت تمل الغنا وإذا دهتك مُلّمة فتصبر

واعلم بأنّ الرزق مقسوم فلو رما زيادة ذرة لم نقدر

والله أرحم بالعباد فلا تسل أحدا تعش عيش الكرام وتوجر¹⁷

في فاس:

خرج ابن خميس إلى فاس التي يبدو أنّ الجو لم يصف له فيها، فقد عاداه بعض أهلها وهو ما ذكره هو في قوله:

ومن العجائب أن أقيم ببلدة يوما وأسلم من أذى جُهاها

شغلوا بدنياهم أما شغلتهم عني فكم ضيعت من أشغالها

حجبوا بجهلهم فإن لاحت لهم شمس الهدى عبثوا بضوء دُبالها¹⁸

في سبتة:

رحل ابن خميس إلى سبتة وكان سبب خروجه حصار أبي يعقوب يوسف المريني لتلمسان، ذلك الحصار الطويل الذي دام ثماني سنوات اضطر فيه أهل تلمسان إلى أكل القطط والفئران، ومات فيه ما لا يحصون عدداً، مما دفع ابن خميس إلى نصيح سلاطين الدولة الزيانية بالدخول في طاعة دولة بني مرين حقناً للدماء وحفاظاً على الأرواح. ويبدو ذلك جلياً في قوله:

دُعيتُم إلى ما يُرتجى من صلاحكم فردّكم عنه التعجرف والجمحُ
تعاليتُم عُجبا فطمّ عليكم عُبابٌ له في رأس عليائه جَلحُ¹⁹

عاش ابن خميس فترة ليست بالطويلة في سبتة ومدح أمراءها من بني العزفي.²⁰ ويبدو أنّه حسب إحدى قصائده قد وجد فيها من الصلحاء والصوفية الكثير يظهر ذلك في قوله:

وأبحرُ علمٍ لا حياض روايةً فيكبرُ منها النضخُ أو يعظمُ النضخُ
يُروننا بالعلم والحلم والنهى فما خرجنا برُّ ولا حدنا برحُ
وما الزهد في أملاك لحْم ولا التقى ببدعٍ وللدنيا لُزوقٌ لمن يرخو
ويصف أبا حاتم العزفي بالزاهد العارف في قوله:

تخلّى عن الدنيا تخليّ عارفٍ يرى أنّها في ثوبٍ نخوته لتخُ²¹

وفعلاً فقد كان بنو العزفي من كبار صوفية سبتة من عهد أبيهم أبي العباس وأبو القاسم بعده صاحبي كتاب الدر المنظم، قهم من أرسوا مشروعية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف والذي كان يحضره كبار المتصوفة والفقراء والزهاد.

ويبدو أنّ الحسد من تقرب بني العزفي لابن خميس فعل فعلته في بعض طلبية سبتة فلم يكد طيب العيش يصقو لابن خميس حتى أتاه ما ينغص عليه ويدفعه إلى السياحة والرحلة فالمصادر تذكر أنّه لما دخل سبتة العزفين، اجتمع إليه عيون طلبتها وسألوه أسئلة من قبيل التعجيز، مما اعتبره سوء أدب فاضطر إلى شدّ عصا الترحال إلى غرناطة سنة 703هـ.²²

ولعلّ البيت الذي عبّر فيه ابن خميس عن حاسديه يتجلى في قوله بعد أن مدح بني العزفي:

لأفواه أعدائي وأعيُنُ حُسّدي إذا جُلّيتْ خائيتي الغصُ والفضحُ²³

في المرية:

ارتحل ابن خميس إلى مدينة المرية ونزل عند واليها أبي الحسن بن كماشة من خدام الوزير ابن الحكيم، فأكرم نزله وتلقاه بالتكريم والميزة.²⁴

التقى ابن خميس بالمرية بالشيخ الأستاذ أبو عثمان بن ليون، وهو من كبار فقهاء وصوفية مدينة المرية صاحب كتاب "كمال الحافظ وجمال الالفاظ في الحكم والوصايا والمواعظ"، وكتاب "أنداء الدّسم في الوصايا والمواعظ والحكم"، الذي ضمّنه الكثير من شعر الزهد والتصوف والتقلّل من الدنيا، وقد ذكر المقرئ أنّه كان ينشد في قصبة المرية في مجلسه بعض قصائد الحلاج وابن العريف.²⁵

وقد التقى ابن ليون بابن خميس وتأثر كل منهما بالآخر وقد نقل ابن ليون عن ابن خميس جملة من شعره في التصوف.²⁶ وتجدر الإشارة إلى أنّ ابن ليون كان من المتأثرين بالإمام الششتري حيث لخص رسالته في التصوف ودافع عن طريقة الفقراء المتجرّدين.²⁷

لكن لا يمكننا أبداً نسبة ابن خميس إلى الطريقة الفقرية²⁸ التي ترى التجرد عن الأسباب، وتبيح الدروزة، فقد كان ابن خميس ممن تولى مناصب عدة سواء في تلمسان أو في مملكة غرناطة كالكتابة والقضاء ووظيفة الإقراء. وهو نفسه كان صاحباً لأبي البركات البليغي الذي يروى أنّه كان ممن يفضّل الغنى على الفقر.²⁹

في غرناطة:

غادر ابن خميس مدينة سبتة إلى غرناطة ويذكر ابن الخطيب أنّه قدمها فرارا من تلمسان لأسباب سياسية أواخر سنة 703هـ، فقد كان كاتباً لدى سلاطين الدولة الزيانية، ولكنّه أوجس منهم خيفة فقرّر الهرب وكانت وجهته مملكة غرناطة.³⁰

وقد استقبله الوزير ابن الحكيم أيما استقبال مما خفّف عنه ألم الفراق والحزن إلى بلده تلمسان التي يبدو أنّه لم يخرج منها اختياراً، وهو ما عبّر عنه ابن خميس في إحدى قصائده بقوله:

وطوّح بي عن تلمسان ما ظننتُ فراقي لها أن يُتاحا³¹
وقوله:

ولولا جوار ابن الحكيم محمد لما فات نفسي من بني الدهر إقماء
حماني فلم تنتب محلي نوابٍ بسوءٍ ولم ترزأ فؤادي أرزاء³²

جلس ابن خميس للإقراء فأقرأ اللغة العربية بحضرة غرناطة والقضاء، ثم ما لبث أن عزم على الرحلة وقد حاول ابن الحكيم ثنيه عن فعله بالاستعانة بالأستاذ الرئيس أبي الحسن بن الجيّاب ولكنّ ابن خميس قال له: "أنا كالدّم بطبعي أتحرك في كل ربيع".³³

ولكنّ الظروف السياسية المضطربة لمملكة غرناطة جعلت حياة ابن خميس تنتهي بنهاية لم تكن أحسن حالاً من نهاية وزيره ابن الحكيم حيث اغتيل في يوم عيد الفطر عام 708هـ وطرح بالعراء خارج باب الفخارين.³⁴ وقيل أنّ الذي قتله هو علي بن نصر الشهير بالأبكم.³⁵

كان لابن خميس أثره العلمي والحضاري في غرناطة في شتى العلوم ولعل من بينها التصوّف حيث تعتبر أغلب أشعار ابن خميس خاصة بعد انتقاله إلى غرناطة أشعاراً توضح منحاه الصوفي رغم ما كان يتخلل تلك القصائد من أمداح مدح بها الوزير ابن الحكيم أو صاحبه ابن زُشيد الفهري (ت721هـ) من أهل سبتة وكلاهما فقيهان وعلماء من كبار الأعلام في مملكة غرناطة وقد كانت لهما مع بعضهما رحلة إلى المشرق للحج والطلب.

ويبدو أنّ توجه ابن خميس الصوفي كان توجهاً معتدلاً مثله مثل تصوّف أبي البركات بعيداً عن القول بالحلول ووحدّة الوجود المطلقة فقد ذكر القاضي أبو البركات بن الحاج أنّ ابن خميس حدثه أنّه كتب على ظهر نسخة كتاب لابن سبعين المسمّى "الفقيرية":

الفقرُ عندي لفظٌ دقّ معناه من راقّة من ذوي الغايات عَنّا
كم من غيٍّ بعيدٍ عن تصوّره أراد كشفَ مُعَمّاه فَعَمّاه³⁶

التقى ابن خميس عند ارتحاله إلى غرناطة بكبار المتصوفة ولعل أهم من التقى به أبي
البركات البليقي وقد تأثر البليقي بابن خميس فهو يذكر أنّه التقاه وتحدّثا عن التصوف
وأهله.³⁷

والقاضي أبو البركات بن الحاج البليقي (ت771هـ) كان متصوّفاً وكان أبوه من
العارفين الصوفية، وقد ألّف أبو البركات كتاباً ذكر فيه بعض كرامات جدّه وذكر من
أقواله في تعريف التصوّف: "الصوفية عبارة عن رجل عدل تقي صالح زاهد، غير منتسب
لسبب من الأسباب، ولا مخلّ بأدب من الآداب، قد عرف شأنه وزمانه، وملكت مكارم
الأخلاق عنانه، لا ينتصر لنفسه، ولا يتفكّر في غده وأمسّه، العلم خليله والقرآن دليله،
والحقّ حفيظه ووكيله، نظر إلى الخلق بالرحمة، ونظر إلى نفسه بالخطر والتهمة."³⁸

وابن الخطيب يذكر بعض أشعار أبي البركات البليقي والتي قيدها عنه برابطة
العقاب.³⁹ وهي على جبل العقاب المطل على غرناطة.⁴⁰ وكانت هذه الرابطة متعبّدة ولي
الله أبي إسحاق الإلبيري الشاعر (ت459هـ) الذي اشتهر بقصيدته في التحريض على قتل
اليهود في عهد بني زيري بعد أن اشتدّت شوكتهم وطغيانهم.

ومن هذه الأبيات التي لا تخلو من مسحة صوفية قوله:

فأجبتُها لو كنت تعلم ما الذي يبدو لتاركها وما يلتأخ

ما كان معنى غامضٌ من أجله قد ساح قومٌ في الجبال وتأخ

حتى لقد سَكروا من الأمر الذي هاموا به عند العيان وسأخ

لعذرَتني وعلمتْ أيّ طالبٍ ما الزُّهدُ في الدنيا له مفتاح⁴¹

مال ابن خميس أواخر حياته إلى السياحة والعزلة، ويظهر ذلك جلياً من أشعاره التي
يظهر أنّه كتبها بعد تجربة سياسية طويلة سبر فيها أغوار الحكم والسلطين
وقوله:

جانب جميع الناس تسلم منهم إنّ السلامة في مجانبة الوري
وقوله:

بدا لي أنّ خير الناس عيشا من آمنه الإله من الأنام
فليس لخائف عيشٌ لذيذٌ ولو ملك العراق مع الشام⁴²

ابن خميس والغزالي:

رغم أنّ ابن خميس كان من أصحاب النظر في العقلیات إلا أنّ منحاه الصوفي لم يكن
تصوّفا فلسفيا بل كان تصوّفا ذوقيا معتدلا، بعيدا عن الحلول والوحدة، وهو المنحى الذي
اشتهر به حجة الإسلام أبي حامد الغزالي.

ومما يؤيد هذا القول ما وصف به ابن الخطاب ابن خميس ونسبته إلى طريقة الغزالي في
التصوف قوله:

رقت حواشي طبعك ابن خميس فهفا قريضك لي وهاج رسيبي
ومثله يصبو الحليم ويمتري ماء الشؤون به وسير العيس
لك في البلاغة والبلاغة بعض ما تحويه من أثر محلّ رئيس
نظم ونثر لا تُبارى فيهما عززت ذاك وذا بعلم الطوسي⁴³
ويقصد بالطوسي أبي حامد الغزالي أي أنّه بالإضافة إلى تضلعه في اللغة والبلاغة
والقريض فقد زين نظمه بمسحة صوفية متأثرا فيها بأبي حامد.

ابن خميس والطريقة الشاذلية:

ذكر ابن خميس في قصيدته الصوفية التي مطلعها "عجبا لها أيدوق طعم وصالها
الشوذي صاحب الطريقة الشاذلية في التصوّف في قوله:

وبدت على الشوذي منها نشوة ما لاح منها غير لحة آها
بطلت حقيقتُهُ وحالت حاله فيما يعبر عن حقيقة حالها
هذي صبابتهم ترق صبابة فيروق شاربها صفاء زلالها⁴⁴

هل كان ابن خميس من أتباع الطريقة الشاذلية في التصوف؟

يذهب البعض إلى أنّ الطريقة الشاذلية نسبة إلى أبي عبد الله الشاذلي الإشبيلي والتي كان من أتباعها ابن دهاق شيخ ابن سبعين المرسى، وكانت هذه المدرسة -حسب البعض- تمزج التصوف بالفلسفة، وتُنسب من البعض إلى القول بالوحدة المطلقة، مما حدا بالفقهاء إلى التحذير منهم ورميهم بالحلول والتستّر بالإلحاد كما فعل أبو حيان في كتابه "النهر الماد من البحر"، والفاسي في "العقد الثمين".⁴⁵

وحاصل قولهم بوحدة الوجود هو والششتري وابن دهاق أنّ الباري جلّ وعلا هو مجموع ما ظهر وما بطن، وأنّ تعدد هذه الحقيقة المطلقة، والهوية التي هي عين كل هوية إنما وقع بالأوهام من الزمان والمكان والخلاف والغيبة والظهور والألم واللذة والوجود والعدم وهي كما قالوا أوهام راجعة إلى الضمير فإذا سقطت سار العالم وما فيه واحداً، وذلك الواحد هو الحق.⁴⁶

لا أحد يمكن أن يقول بأنّ ابن خميس كان على الطريقة الشاذلية بمجرد ذكره للشاذلي الحلوي نزيل تلمسان، رغم مدحه له وللسهروردي في قوله:

أكرم بها فئة أريق نجيعةا بغيا فراق العين حُسْنُ مآلها⁴⁷

وقد يستشف من كلامه التماسه العذر لأصحابها الذين عجزوا عن التعبير عن الحال التي كانت تعترهم، وهو ما عبّر عنه بقوله:

فإذا رأيت مُدَلِّها مثلي فخذ في عذله إن كنت من عُدَّالها⁴⁸

خاتمة:

في الأخير يمكننا الذهاب إلى القول إلى أنّ التوجّه الصوفي لابن خميس بدأ معه في سن مبكرة سنوات نشأته بتلمسان حاضرة الزيانيين في جوّ مليء بالمتصوفة أمثال أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي (ت680هـ) صاحب الكرامات دفين العباد، متأثراً في ذلك بكبار متصوفة عصره كاتب الدولة الزيانية محمد بن عبد الله بن داوود بن خطاب الغافقي المرسى (ت686هـ).

إضافة إلى ما عاناه في تلمسان خلال توليه الكتابة بدواوين الدولة والتي جلبت له الكثير من الحاسدين والناقمين بسبب مواقفه مما دفعه إلى التقلل من الدنيا والزهد فيها وهو ما ضمّنه أشعاره، فقد كان لسبّية العزفيين دور هام هي الأخرى في سلوك ابن خميس طريق السياحة والتصوف.

في مملكة غرناطة التقى ابن خميس بكبار المتصوفة الفقهاء وهو الفقيه الصوفي القاضي أبو البركات البلفيقي، والتقى بمدينة المرية بالشيخ الأستاذ أبو عثمان بن ليون، وهو من كبار فقهاء وصوفية مدينة المرية صاحب كتاب "أنداء اللّسم"، الذي ضمّنه الكثير من شعر الزهد والتصوف والتقلل من الدنيا، وقد ذكر المقرئ أنّه كان ينشد في قصبة المرية في مجلسه بعض قصائد الحلاج وابن العريف.

هذا ولا يظهر في شعر ابن خميس قوله بوحدة الوجود والحلول رغم أنّه كان من المشتغلين بالعلوم العقلية والمطلعين على الفرق، كما أنّه لم يكن من أصحاب الطريقة الفقية التي انتشرت في مملكة غرناطة والتي كانت محل رفض من الكثير من فقهاء غرناطة في عصر ابن خميس وما بعده كالإمام الشاطبي والإمام الحفار.

الهوامش

¹ المقدمة، ص: 614

² العبدري: الرحلة المغربية، ص: 30

³ ابن القاضي: درة الحجال، ج 02، ص: 29

⁴ المقرئ: أزهار الرياض، ج 02، ص: 304

⁵ في لسان العرب أنّ النّيف الزيادة من سنة إلى ثلاث سنوات. المجلد السادس، ص: 4580

⁶ ابن الخطيب: الإحاطة، ج 02، ص: 529

⁷ العبدري: الرحلة المغربية، ص: 30 و 31

⁸ تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان للتنسي، ص: 126 و 127

⁹ ابن مرزوق التلمساني: المناقب المرزوقية، ص: 150 وما بعدها

- ¹⁰ التنبكي: نيل الابتهاج، ص: 38
- ¹¹ المقرئ: أزهار الرياض، ج 02، ص: 322 و 323
- ¹² ابن خلدون: بغية الرواد، ج 01، ص: 118
- ¹³ ابن الخطيب: الإحاطة، ج 02، ص: 428
- ¹⁴ العبدري: الرحلة المغربية، ص: 37
- ¹⁵ ابن الخطيب: الإحاطة، ج 02، ص: 429 و 430
- ¹⁶ العبدري: الرحلة المغربية، ص: 39
- ¹⁷ ابن الخطيب: الإحاطة، ج 02، ص: 428
- ¹⁸ المقرئ: أزهار الرياض، ج 02، ص: 321
- ¹⁹ المصدر نفسه، ج 02، ص: 325
- ²⁰ المصدر نفسه، ج 02، ص: 302
- ²¹ المقرئ: أزهار الرياض، ج 02، ص: 327
- ²² المقرئ: نفع الطيب، ج 05، ص: 356-359، أزهار الرياض، ج 02، ص: 297-301
- ²³ المقرئ: أزهار الرياض، ج 02، ص: 328، والفضخ: هو كُشِّر كل شيء أجوف كالرأس..، ابن منظور، لسان العرب، المجلد الخامس، ص: 3426، مادة فَضَخَ
- ²⁴ المقرئ: أزهار الرياض، ج 02، ص: 303
- ²⁵ المقرئ: نفع الطيب، ج 05، ص: 543 وما بعدها، أنظر شعره أيضا في الكتيبة الكامنة لابن الخطيب، ص: 85-87
- ²⁶ المقرئ: أزهار الرياض، ج 02، ص: 303
- ²⁷ أنظر الرسالة الششتريّة، ص: 45 وما بعدها
- ²⁸ ذكر ابن ليون التجيبي في شرحه على رسالة الششتري صفات الفقراء والتي أنكرها عليها غيرهم، وهي التجرد والتفشّف، وترك الأسباب والسؤال، والخروج عن المال وترك الادّخار، ولبس المرقعة، وكثرة السفر وترك الوطن، والأكل في المسجد، والرقص في المسجد. الرسالة الششتريّة، ص: 75
- ²⁹ ومن قوله: "من اقتصر على التعيش من مرافق الملوك ضاع هو ومن له، وشمله القلّ وخامره الذلّ. اللّهم إلا من كان بالقوة من الله قد بلغ من الزهد في الدنيا إلى الحدّ الذي يُكسبه الراحة بالخروج عن متاعها، وترك شهوتها، قليلها وكثيرها، ومن لنا بالعون على تحصيل هذا المقام، ولا سيما في هذا الزمان." النباهي: المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، ص: 164 و 165
- ³⁰ ابن الخطيب: الإحاطة، ج 02، ص: 529
- ³¹ المصدر نفسه، ج 02، ص: 544
- ³² المصدر نفسه، ج 02، ص: 540
- ³³ المصدر نفسه، ج 02، ص: 528-562

- ³⁴ ابن الخطيب: الإحاطة، ج 02، ص: 562
- ³⁵ ابن مريم: البستان، ص: 225
- ³⁶ المقرئ: نفح الطيب، ج 05، ص: 360، أزهار الرياض، ج 02، ص: 302 و 303
- ³⁷ المقرئ: نفح الطيب، ج 05، ص: 360، أزهار الرياض، ج 02، ص: 302 و 303
- ³⁸ المقرئ: نفح الطيب، ج 05، ص: 471 وما بعدها
- ³⁹ ابن الخطيب: الإحاطة، ج 02، ص: 155
- ⁴⁰ رحلة ابن بطوطة، ج 02، ص: 685
- ⁴¹ ابن الخطيب: الإحاطة، ج 02، ص: 155 و 156
- ⁴² المقرئ: نفح الطيب، ج 04، ص: 324
- ⁴³ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 02، ص: 430، المقرئ: نفح الطيب، ج 05، ص: 359
- ⁴⁴ المقرئ: أزهار الرياض، ج 02، ص: 321
- ⁴⁵ أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: المدرسة الشاذلية في التصوّف الأندلسي، مقال منشور ضمن مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، 1985-1986م، العدد 23، ص: 175-178، أنظر أيضا: اسماعيل الخطيب: ابن سبعين الفيلسوف المتصوّف بين بلنسية وسبتة، مقال ضمن ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية: تيارات الفكر في المغرب والأندلس: الروافد والمعطيات، 26-27-28 أبريل 1993م، جامعة عبد الملك السعدي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية تطوان، ص: 529-537
- ⁴⁶ ابن خلدون: شفاء السائل وتهذيب المسائل، ص: 111 و 112
- ⁴⁷ المقرئ: أزهار الرياض، ج 02، ص: 321
- ⁴⁸ المصدر نفسه، ج 02، ص: 322